

الأربعون العقديّة

الحديث
السادس والعشرون

المشكاة
في شرح حديث
لا تعجز ، واستعن
بالله

كتبه : أيمن إسماعيل

****بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ****

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ "

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " أما بعد ،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار

**** نص حديث الباب :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اِحْرَاصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتِعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »

تخریج الحديث :

أخرجه مسلم (2664) " باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله " ، والإمام أحمد في المسند (8791)

*** أهم الفوائد المتعلقة بحديث الباب :**

الفائدة الأولى : معنى المؤمن القوى :

فقوة المؤمن تتمثل في حرصه على القيام لدين الله -تعالى- اعتقاداً وقولاً وعملاً .
فما ورد باباً من أبواب الشريعة إلا وقد ولجه .
فالقوة في طلب الحق والقيام به مطلب شرعى ، قال تعالى (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ

بِقُوَّةٍ ([مریم:12]، والله وصف أصحاب النبي ﷺ بأنهم: أشدَّاء على الكفارِ
رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) [الفتح:29]، فالجد
على الطاعة، والصبر على ذلك كله من القوة التي يحبها الله تعالى .

قال القرطبي :

أي المؤمن القوي البدن والنفس الماضي العزيمة الذي يصلح للقيام بوظائف العبادات
من الصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما يصيبه في
ذلك وغير ذلك مما يقوم به الدين وتتهض به كلمة المسلمين فهو الأفضل والأكمل
وأحبُّ عند الله تعالى .¹

فالإشارة بالقوة ها هنا إلى العزم والحزم والإحتياط ، لا إلى قوة البدن.
وهذا المعنى هو ما نص الشاعر في قوله :

لَيْسَ الشَّجَاعُ الَّذِي يَحْمِي كَتَيْبَتَهُ ... يَوْمَ النِّزَالِ وَنَارِ الْحَرْبِ تَشْتَعِلُ

لَكِنْ فَتَى غَضَ طَرْفًا أَوْ ثَنَى بَصْرًا ... عَنِ الْحَرَامِ، فَذَاكَ الْفَارِسُ الْبَطْلُ .²

وقال الطيبي :

قيل: أراد بالمؤمن القويّ: الذي قوي في إيمانه، وصلّب في إيقانه بحيث لا يرى الأسباب، ووثق بمسبب
الأسباب، والمؤمن الضعيف بخلافه، وهو أدنى مراتب الإيمان. قال: ويمكن أن يُدْهَبَ إلى اللَّفِّ والنَّشْرِ،
فيكون قوله: "احرص على ما ينفعك" بياناً للقويّ، وقوله: "ولا تعجز" بياناً للضعيف.³

* ومن علامات المؤمن القوي :

أن يكون قواماً لله – عزوجل- ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، حافظاً لأمر الله
تعالى ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: .

" احفظ الله يحفظك " 4 ، وحفظ أمر الله - تعالى - على نوعين :

(أ) حَفِظَ أَمْرَ اللَّهِ الْقَدْرِي :

وذلك بالصبر على الأقدار ، فهذه من علامات صدق الإيمان ، فعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ
الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
" عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،
إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ فَصَبَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ
خَيْرًا " 5 ، فجعل الصبر على القدر لا يحصل إلا للمؤمن .

¹ المفهم وكشف المشكل من حديث الصحيحين(3/552)

² نم الهوى لابن الجوزي (ص/143)

³ الكاشف عن حقائق السنن(10/3334)

⁴ أخرجه أحمد(2669) والترمذي(2516) وقال الترمذي: حسن صحيح.

⁵ أخرجه مسلم (2999)

(ب) حفظ أمر الله الشرعي :

وذلك بالقيام بحق الشرع ، بامتنال الأوامر واجتناب النواهي .
كما قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)) (الأنفال/74) ،
وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ
(61)) (المؤمنون/61)

* والذي يتنبه لدلالات ألفاظ القرآن والسنة يجد أنها قد حثت في أبواب الآخرة على
الجد والسعي والمبادرة ، وأما في أمور الدنيا فقد جاء الأمر بالتمهل والإجمال .
قال الله تعالى (فَاسْتَنْبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة: 148)
وقال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: 133)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال
: " بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ،
أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا " 6 .
فالحديث فيه الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرهما ، والاشتغال
عنها بما سيقع من الفتن الشاغلة المتركمة كترام ظلام الليل المظلم .
وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : " لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله " 7

* وأما في أمور الدنيا فقد أمر الله - تعالى- فيها بالتؤدة :

فقد قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ
وَالِيهِ النُّشُورُ (15)) (الملك/15)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
" إن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها
؛ فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " 8 .

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه- قال:
كَانَ أَحْوَانٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ ، فَشَكَاَ الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : " لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ " 9 .

6 أخرجه مسلم (118)

7 أخرجه مسلم (438)

8 أخرجه الحاكم (2135) و البيهقي (10185) ، انظر صحيح الجامع (2085) ، والإجمال: هو الطلب بقصد
واعتماد ، مع عدم انشغال القلب .

9 أخرجه الترمذي (2345) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

* عوداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ " :

* وهنا إشكال :

قد ورد في حديث الباب ما يُفهم منه ذم المؤمن الضعيف ، فظاهره قد يعارض ما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من قوله في الصحيحين : « ألا أخبر أهل الجنة؟ » قالوا: بلى، قال صلى الله عليه وسلم : " كل ضعيف متضعف " ، وقوله صلى الله عليه وسلم: هل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم¹⁰ ؟ قال زين الدين المناوي :

وعند التأمل لا تدافع ؛ إذ المراد بمدح الضعف لين الجانب ورقة القلب والانكسار بمشاهدة جلال الجبار ، وبذم الضعف ضعف العزيمة في القيام بحق الواحد القهار ، على أنه لم يقل هنا أنهم ينصرون بقوة الضعفاء ، وإنما مراده بدعائهم أو بإخلاصهم .¹¹

* قلت :

وقد ورد في حديث البخاري (هل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم) ، وفي رواية له عند النسائي («إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»)¹² ، وفيها زيادة فائدة وهي أن ضعفهم ليس ضعفاً في الإيمان ، بدلالة وقوع النصر للأمة قد حصل بدعواتهم وصلاتهم ؛ لصفاء ضمائرهم وقلة تعلقهم بزخرف الدنيا فيغلب عليهم الإخلاص في العبادة ويستجاب دعائهم .
* وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " وفي كل خير " :

فمعناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في أصل الإيمان ، مع ما يأتي به الضعيف من العبادات .¹³

قال ابن العثيمين :

¹⁰ أخرجه البخاري (2896)

¹¹ فيض القدير شرح الجامع الصغير(82/1)

¹² أخرجه النسائي (3178) وصححه الألباني.

¹³ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج()

قال عليه الصلاة والسلام: (وفي كل خير) لئلا يتوهم أحد من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف فيه خير، فهو خير من الكافر لا شك. وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون الاحتراز، وهو أن يتكلم الإنسان كلاماً يوهم معنى لا يقصده، فيأتي بجملة تبين أنه يقصد المعنى المعين، ومثال ذلك في القرآن قوله تبارك وتعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى) (الحديد: 10)،

ومن ذلك قوله تعالى: (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) (الأنبياء: 79)، لما كان هذا يوهم أن داود عنده نقص، قال تعالى: (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) 14.

* وأما قوله صلى الله عليه وسلم :

" احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز " :

وهذه من جوامع الكلم التي أوتيتها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي جملة جامعة بين أصليين مهمين ، وهي حسن تعلق القلب بالله تعالى ، مع سعى الجوراح في الأخذ بالأسباب المادية فقوله صلى الله عليه وسلم : «استعن بالله»: هذا هو التوكل.

وقوله صلى الله عليه وسلم: « ولا يعجز » وهذا هو الأخذ بالأسباب. 15

فسعى المرء حرصاً على ما ينفعه في أمر معاشه لا ينسيه أن يكون حال سعيه مستعيناً بالله تعالى .

قال أبو العباس ابن تيمية :

في قوله صلى الله عليه وسلم " { احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز } "

أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع. وأمر مع ذلك بالتوكل ، وهو

14 شرح الصالحين (87/2)

15 وقد ذكرنا في شرح حديث " السبعين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب " أدلة الكتاب والسنة على أنه لا تعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب ، وأنه لا تعارض بينهما بحال. مما يغنى عن إعادة ذكره هنا.

الاستعانة بالله ، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس. ¹⁶

وقال رحمه الله :

لا تعجز عن مأمور ولا تجزع من مقدور ، والإنسان بين أمرين :
أمر أمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز ، وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه؛ ولهذا قال بعض العقلاء ابن المقفع أو غيره الأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. ¹⁷

قال ابن القيم :

«التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة ؛ فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل

هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة . ¹⁸

ومن ترك الاستعانة بالله - تعالى - واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً.

و كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه"

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم - يتعوذ بالله -تعالى - من الكسل ، كما ورد في حديث أنس بن مالك-رضى الله عنه- قال:

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل " ¹⁹

¹⁶ مجموع الفتاوى (182/18)

¹⁷ المصدر السابق(39/16)

¹⁸ مدارج السالكين (114/2)

¹⁹ متفق عليه .

"قال العلامة السعدي :

وقد جمع النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر والعمل بالأسباب النافعة، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، ولا يتم الدين إلا بهما بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بهما؛ لأن قوله: "أحرص على ما ينفعك" أمر بكل سبب ديني ودنيوي بل أمر بالجد والاجتهاد فيه، والحرص عليه نية وهمة وفعلاً وتدبيراً.
وقوله: "واستعن بالله" إيمان بالقضاء والقدر، وأمر بالتوكل على الله الذي الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى في جلب المصالح، ودفع المضار مع الثقة التامة بالله في نجاح ذلك .
فالمتبع للرسول - صلى الله عليه وسلم - يتعين أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته.²⁰

*فروع:

فإن الاستعانة معناها طلب العون، والاستعانة على أقسام :

1/الأول : استعانة توحيدية تعبدية :

وهي طلب العون من الله - تعالى - فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وثبت عن النبي

- صلى الله عليه وسلم - أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما :

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» .²¹

وهذه التي نسأل الله -تعالى- إياها في كل صلاة في قولنا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

(5/5)) (الفتحة/5) ، وهي آية عظيمة جامعة لنوعى التوحيد : فقولنا " إِيَّاكَ نَعْبُدُ "

مبنية على توحيد الإلهية ، وقولنا " وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " مبنية على توحيد الربوبية .

قال الشنقيطى :

قوله: (إياك نعبد) فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة

; لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في

²⁰ بهجة قلوب الأبرار(ص/37)

²¹ أخرجه الترمذى (2516) و أحمد (308/1) وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح .

آيات أخر كقوله: (فاعبده وتوكل عليه) ، وقوله: (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت)²²

* وقد ورد عن أبي هريرة -رضى الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين،، فإذا قال: {إياك نعبد وإياك نستعين} قال: هذا بيني وبين عبدي (....) .²³

وقد بيّن ذلك ابن رجب معنى قوله تعالى (هذا بيني وبين عبدي) فقال : فالعبادة حق الله على عباده ، ولا قدرة للعباد عليها بدون إعانة الله لهم ، فلذلك كانت هذه الكلمة بين الله وبين عبده، لأن العبادة حق الله على عبده. والإعانة من الله فضل من الله على عبده.²⁴

قال ابن كثير :

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: 5] فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل.²⁵

وهنا فوائد :

(1) الأولى :

قد خص الله -تعالى - الاستعانة بالذكر رغم أنها داخلة في معنى العبادة وا ذلك إلا لأهميتها ، فالقاعدة "أن ذكر الخاص بعد العام إنما يكون للتأكيد " ، وذلك نظير قوله تعالى (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))) (البقرة/98) ، وقوله النبي صلى الله عليه وسلم : (ألا

²² أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن()

²³ أخرجه مسلم (395)

²⁴ روائع التفسير(69/1)

²⁵ تفسير القرآن العظيم (135/1)

إن الدنيا خضرة حلوة، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)²⁶

(2) الثاني :

قوله تعالى: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فيه أسلوب الحصر، وذلك من خلال تقديم ما حقه التأخير ، كذلك يقال " تقديم المعمول من صيغ الحصر ".
ففيه ذلك بيان أن الاستعانة التوحيدية لا تكون إلا لله تعالى ، ونظير ذلك قوله تعالى {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} وهذا أبلغ في الحصر، وقوله تعالى (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ) ففيه تقديم ما حقه التأخير لبيان حصر الملك لله - تعالى - دون غيره .

ثانياً : الاستعانة المباحة :

وهي الاستعانة بالمخلوق ، وهذه لا تشرع إلا بشروط ثلاثة :
أن يكون المستعان به : " حياً ، حاضراً ، قادراً " ، فذكر الحي احترازاً من الاستعانة بالميت ، وذكر الحاضر احترازاً من الاستعانة بالغائب ، وذكر القادر احترازاً من الاستعانة بالمرء على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى .
فإذا ما انتفى واحد من هذه الشروط الثلاثة صارت الاستعانة شركية . ومما يدل على مشروعية الاستعانة المباحة قوله صلى الله عليه وسلم: " والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه " .²⁷

ثالثاً : الاستعانة الشركية :

لما كانت الاستعانة عبادة من أعظم العبادات التي يتوجه بها العبد إلى ربه عزوجل ، فقد صار صرفه لغير الله -تعالى- من الشرك المخرج من الملة ، فالقاعدة هنا " أن كل ما ثبت بالكتاب أو السنة أنه عبادة فصرفه لله -تعالى- توحيد ، وصرفه لغير الله شرك " ، وذلك يتمثل في الاستعانة بالغائب أو الميت أو بالمخلوق في أمر

²⁶ أخرجه مسلم (2742)

²⁷ أخرجه مسلم (2699)

لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، وهذا من الشرك في الربوبية .
قال ابن عبد الهادي :

ولو جاء إنسان إلى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به، كان هذا شركاً
محرمًا بإجماع المسلمين .²⁸

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن :

إن الاستمداد بالأموات والغائبين هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، فإن الاستمداد
عبادة، والعبادة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله ،..... والاستمداد طلب
المدد بالقلب، واللسان، والأركان ولا بد، وهذه الأعمال هي أنواع العبادة، فإذا كانت
لله وحده، فقد ألهه العبد، فإذا صرف لغير الله - تعالى - صار مألوهاً .²⁹
* وكمن فئام في هذه الأمة أشركوا بالله -تعالى- لما قاموا بالاستعانة بغير الله -
تعالى - في الأمور التي تختص فيها الاستعانة به سبحانه ، بحجة التوسل بهؤلاء
الأشخاص والأموات إلى الله جل شأنه.

ومن هذا ما كان يتوجه به بعض مشركي العرب إذا نزل وادياً مقفراً إلى سيد القوم
من الجن في ذلك الوادي، ليقية الضّر . فيكون فيه نوع تعظيم لهم، وهو شرك، لكون
الاستعانة - بما لا يقدر عليه إلا الله - عبادة لغير الله سبحانه.

قال القرطبي :ولا خفاء أن الاستعانة بالجن دون الاستعانة بالله كفر وشرك .³⁰
وكذلك ما يفعله السحرة من الاستعانة بالأرواح الأرضية - وهم الجن و الشياطين،
وهو ما يُعرف بالعزائم والتسخير . وكتب السحر مملوءة من الأقسام والعزائم على
الجن بساداتهم الذين يعظموهم ، فدل هذا على أن السحر يكون من الاستعانة
بالشياطين ،ى وليس كما يدعى ابن سينا وغيره أن السحر من قبيل القوى النفسانية

²⁸ الصارم المنكى (ص/346)

²⁹ الدرر السنية في الأجوبة النجدية (416/11)

³⁰ انظر الجامع لأحكام القرآن (10/19) والتحسين من كيد الشياطين(ص/32)

، فهو قول باطل .

* شبهة الجواب عليها :

قد استدل المجوزون للاستعانة الشركية ببعض الآيات القرآنية التي هي ليست في محل النزاع: مثل قوله تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ). قالوا: أمرنا الله بالاستعانة بالأعراض!!!

* ويجاب عن هذه الشبهة بما يلي:

إن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بجواز الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين، بل هذه الآية من أقوى الأدلة على وجوب الالتجاء إلى الله والاستغاثة به عند الملمات، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحات، إذ الصلاة والصبر من أعظم الأعمال الصالحات التي يتوسل بها إلى الله عند الكربات، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر توسل إلى الله بالصلاة .

بل الآية من قبيل قوله تعالى: (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)؛ فكما أن المراد منها الاعمال الصالحة على تفسير السلف من الأثر والرأي، هكذا هنا المراد من هذه الآية: التوسل بالأعمال الصالحة.³¹

* فرع : مسألة الاستعانة بالجن المسلم :

وأما هذه المسألة فقد يفهم جواز ذلك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد ذكر مثل هذا ، ووضع جملة من الضوابط لذلك . يقول رحمه الله :
" ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له، فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم في مباحات له " ، وقال رحمه الله :

³¹ الشرك في القديم والحديث(1255/2)

قال صالح بن عبد العزيز آل الشيخ :
وقد بَلَّغَنِي بَيِّنِينَ عَنْ بَعْضِ مَنْ يَتَعَاطَى الْقِرَاءَةَ وَهُوَ مِنَ الْجَهْلَةِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَا مِنْ طَلِبَةِ الْعِلْمِ مِمَّنْ فَتَحَ هَذَا الْبَابَ فَسَيَطَّرَ عَلَيْهِ الْجِنُّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فِي هَذَا، وَأَصْبَحَ يَأْمُرُونَهُ بِأَشْيَاءَ وَيَنْهَوْنَهُ عَنْ أَشْيَاءَ، وَرَبَّمَا أَذْلُوهُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، فَسَدُّ الذَّرِيعَةِ فِي هَذَا وَاجِبٌ وَلَا يَجُوزُ التَّسَاهُلُ بِهِ. هـ وانظر الأداب الشرعية (1/198)
وإتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل(709/1) والتوضيح الرشيد في شرح التوحيد(ص/92)

" ومنهم من يستخدمهم - أي الجن - في أمور مباحة إما إحضار ماله، أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك " .
ومن الضوابط التي حددها لذلك :

" يعني يستعين بهم فيما يقدرون عليه ، كون السبب مباحاً ، ألا تفضي هذه الاستعانة إلى محرم، أن يكون المستعين بالجنى من الموحدين الصالحين، وعلى معرفة التوحيد وما يضاده .³²

*** الراجح في ذلك - والله أعلم - هو المنع ، وهذا عليه جماهير أهل العلم ؛ وذلك لأمر:**

1- أن هذا الأمر داخل في الاستمتاع الذي حرمه الله عز وجل، كما في قوله عز وجل: { رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ } [الأنعام: 128]، فجاء على سبيل الذم على ما فعلوه، فاستمتع الإنس بالجن على أي نحو كان .
لم يرد الدليل بالاستثناء ولا بالتخصيص، فبقاء الأمر على عمومته بما يشمل الجميع هذا هو الأصل وهو المتعين .
قال صالح بن عبد العزيز آل الشيخ :

الاستعانة بالجن: من أسباب إغراء الإنسي بالتوسل إلى الجني، وبرفعة مقامه، وبالاستمتاع به، وقد قال جل وعلا { رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا } [الأنعام: 128]

ويحصل الاستمتاع من الإنسي بالجني بأن يخدمه الجني، وقد يكون مع ذلك الاستمتاع ذبح من الإنسي للجني، وتقرب بأنواع العبادات ؛ ولهذا نقول:
إن تلك الاستعانة بجميع أنواعها لا تجوز، فمنها ما هو شرك - كالاستعانة بشياطين الجن- يعني: الكفار - ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك، كالاستعانة بمسلمي الجن.³³
2- أن الجن في زمن النبوة كان منهم من لقي النبي صلى الله عليه وسلم، واستمع إليه، وأسلم معه ، ومعلوم أن عندهم من القدرات والإمكانات التي أعطاهم إياها الله - تعالى- ما ليس لغيرهم ؛ وقد مضى زمن النبوة وزمن الصحابة رضى الله عنهم ، ولم يجر فيه الاستعانة بالجن - حتى المسلم منها - فكان هذا الأمر بمثابة إجماع منهم على عدم مشروعيته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

فلم يستخدم الجن أصلاً - أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلغهم الرسالة، وبايعهم كما فعل بالإنسي.³⁴

³² ويراجع لذلك مجموع الفتاوى (11/ 307) و(13/ 87) والنبوات (1/ 278)

³³ التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص/ 615)

³⁴ مجموع فتاوى (13/ 89).

3- قد ورد في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي هريرة رضى الله عنه :
« صدقك وهو كذوب ، ذاك شيطان »³⁵

فالأصل في الشياطين الكذب، فلا يؤمن كذب من يزعم منهم أنه مسلم أو صالح؛ فهم يوقعون العداوة بين الناس في كذبهم .

لذا ولكثرة الكذب في هذا الباب فقد أغلقه الشرع مع الدجالين والعرافين من الإنس ، قال صلى الله عليه وسلم : " من أتى عرّافاً فسأله عن شيء: لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة " .³⁶ ، وقال صلى الله عليه وسلم : " من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد " .³⁷

4- أن الأصل في ذلك هو سد الذريعة وحسم المادة ؛ فقد تؤدي الاستعانة بالجن إلى حصول خلل في العقيدة؛ فترى المستعين يلجأ إليهم ويتعلق بهم تعلقاً يبعده عن الخالق سبحانه وتعالى ، الواقع والتجربة شاهدان على ذلك .³⁸ والمتتبع لحال كثير من الرقاة والمعالجين بالقرآن يرى كم الدجل والشركيات التي وقعوا فيها في هذا الباب .

قال أحمد في الرجل يزعم أنه يعالج المجنون من الصرع بالرقى والعزائم، أو يزعم أنه يخاطب الجن ويكلمهم، ومنهم من يخدمه؛ قال:

ما أحب لأحد أن يفعله، تركه أحب إليّ .³⁹

وهذا يراد به التحريم، كما هو المعلوم من نصوص الإمام أحمد وألفاظه.

***تنبيهات :**

1- أما ما يُنقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية من تجويز ذلك فهو محمول -والله أعلم- على ما إذا فعلوا شيئاً من غير أن يطلب منهم ، أو أخبروا الشخص وهو قادر على أن يعرف صدقهم من كذبهم، فهذا هو المحتمل ، وليس أن يطلب منهم قضاء الحاجات .

2- إذا جاءت الخدمة من الجني بدون اتفاق وعهد فلا حرج فيها ؛ لأنه قد تكون من الكرامة للإنسان.⁴⁰

*** عود إلى حديث الباب :**

³⁵ أخرجه البخاري (3275)

³⁶ أخرجه مسلم (2230)

³⁷ أخرجه أحمد (9532) وأبوداود (3904) ، وانظر صحيح الجامع (5939)

³⁸ قال صالح بن عبد العزيز آل الشيخ :

وقد بَلَّغني بيقين عن بعض من يتعاطى القراءة وهو من الجَهْلَة، ليس من أهل العلم ولا من طلبة العلم ممن فتنَّ هذا الباب فسَيَطَّر عليه الجن وهو لا يعلم في هذا، وأصبح يأمرونه بأشياء وينهونه عن أشياء، وربما أدلَّوه في بعض الأمور، فسُدَّ الذريعة في هذا واجبٌ ولا يجوز التساهل به .

³⁹ وانظر الآداب الشرعية (1/198)

⁴⁰ ويراجع في هذه المسألة : إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (709/1) والتوضيح الرشيد في شرح

التوحيد(ص/92)

قوله صلى الله عليه وسلم : " وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا " :

، وفيه من الفوائد أنه إذا وقع بعد حرصه على طلب ما ينفعه خلاف مطلوبه ،

لا ينبغي له التأسف، وقول: " لو أني فعلت كذا كان كذا " تسخطاً لقدر الله

تعالى، بل الواجب أن يستسلم لقضائه وقدره، ولا يتسخط؛ لأن الله - سبحانه وتعالى -

أعلم بمصالح عباده، فربما يكون عكس ما حرص عليه خيراً إما في الدنيا، وإما في

الآخرة، قال الله - عز وجل - : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ

تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) } [البقرة: 216].

وقال: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: 19]،

بل الواجب عليه حينئذ أن يقول: "قدر الله، وما شاء فعل".

والحاصل:

أن نزول المكروه الدنيوي على العبد المؤمن خير له ؛ لأنه

إنما أصابه بما كسب من المخالفات، كما قال الله - سبحانه وتعالى - : { وَمَا أَصَابَكُمْ

مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) } [الشورى: 30]،

ثم إن هذا الذي أصابه إما أن يكون تكفيراً لما اقترفه من السيئات، وهذا مطلب

عظيم، وإما أن يكون رفعاً لدرجاته، وهذا أعلى وأغلى، والله تعالى أعلم.⁴¹

**عُودَ إِلَى حَدِيثِ الْبَابِ :

قوله صلى الله عليه وسلم : " وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا

وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل " :

فقد أرشد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى تفويض الأمر إلى قدر الله بعد فعل

⁴¹ البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج(547/41)

الأسباب التي يحصل بها المطلوب ثم يتخلف .

وإنما هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب، لا على المعاييب ، ونظير ذلك ما قاله آدم -عليه السلام- لما احتج بقدر الله -تعالى- على المصيبة التي حصلت له ولبنيه وهي الإخراج من الجنة ،فقال لموسى عليه السلام :

" أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة" ⁴²

***عُودَ إِلَى حَدِيثِ الْبَابِ :**

قوله صلى الله عليه وسلم : " فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ " :

قال النووي :

وقد جاء من استعمال لو في الماضي ، قوله صلى الله عليه وسلم : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى " ، وغير ذلك فالظاهر أن النهي إنما هو عن إطلاق ذلك فيما لا فائدة فيه ، فيكون نهى تنزيه لا تحريم . فأما من قاله تأسفاً على مافات من طاعة الله تعالى ، أو ما هو متعذر عليه من ذلك ونحو هذا فلا بأس به ، وعليه يحمل أكثر الاستعمال الموجود في الأحاديث ، والله أعلم. ⁴³

وجه آخر :

أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم - في الصحيح: (لا يقولن أحدكم: لو؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان) فمحمول على من يقول ذلك معتمداً على الأسباب، معرضاً عن المقدور، أو متضجراً منه، كما حكاه الله تعالى من قول المنافقين حيث قالوا: { لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } ثم ردَّ الله قولهم، وبين لهم عجزهم، فقال: { قُلْ فَأَدْرَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ⁴⁴

*** قال العلامة ابن العثيمين :**

⁴² متفق عليه .

⁴³ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ()

⁴⁴ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (4/638) والشرك في القديم والحديث (1/621)

الوجه الأول:

أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى: { لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضاً، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا } أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا؛ فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث:

أن تستعمل للندم و التحسر، وهذا محرم أيضاً؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال صلى الله عليه وسلم: " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان ".
مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخرس، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة؛ فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهي عنه.

الرابع:

أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } وقولهم: { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } ، وهذا باطل.

الخامس:

أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وفي "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: " لو أن لي ما لا لعملت بعمل فلان " فهذا تمنى خيراً، وقال الثاني:

"لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان " ، فهذا تمنى شراً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم في الأول: " فهو بنيته، فأجرهما سواء "وقال في الثاني:
" فهو بنيته ، فوزرهما سواء " .⁴⁵

تم بحمد الله.

⁴⁵ القول المفيد على كتاب التوحيد(2/362)